

# المجتمع المصري عرضة للانحلال

لتعدد سمات التربية وسمات الثقافة

لحضره صاحب المعالي محمد عبد الجليل أبو سمرة باشا

وزير الشؤون الاجتماعية

وحدة الدم ، ووحدة التربية ، ووحدة الثقافة . هذه هي المقومات الأولى للشعوب ، والعرى التي تمسكها من الانحلال والتفريق . وقد شاهدنا في الحرب الحالية كيف نفذ الألمان من خلال تعدد العناصر في دول شرق أوروبا إلى تمزيقها أو احتلالها أو تهديدها ، كما هو حاصل في تشيكوسلوفاكيا ورومانيا ويوجوسلافيا .

ونحن في مصر مضمثون من ناحية وحدة الدم ، لأن الريف المصري سليم ، وهو يصير مختلف الأجناس والعناصر التي تصب فيه ، ويحييها عصرا واحدا متشابه السمات . ولكن وحدة الدم بمفرده لا تكفي حين تتعدد سمات التربية وسمات الثقافة ، وتباين — تبعاً هذا — مقومات الشخصية الفردية والاجتماعية .

على أن لاطمئن إلى وحدة الدم ينبغي أن ننظر إليه بشيء من التقصّد والحذر . فهذه الوحدة أصبحت مهددة إلى حد ما ، في المدن على الأقل ، لشدة الاختلاط بالزواج بين عناصر مختلفة ، ويجب أن نتنبه إلى هذا الخطر الذي يضاعفه تعدد البيئات وتعدد الثقافات وانعدام الوحدة بينها ولو في مرحلة من المراحل .

وإن الباحث الاجتماعي يشعر بالهول ورهبة حين يستعرض عشرات البيئات وعشرات الثقافات التي تشترك في تكوين مقومات الشخصية والعقيدة . وحين يرى كلا منها مستقل في إخراج قسم من الشعب لا تربطه بالأقسام الأخرى صلة ، لا صلة الحياة في حدود جغرافية واحدة ، ولا تتمتع — من الوجهة القانونية — بجنسية واحدة .

والحق أن الأجناس التي يتألف منها هذا الشعب كثيرة متفرقة : ففيها المصري والتركي والعربي والكردي والشامي والمغربي والسوداني والحبشي ، وفيها غير ذلك كثير . وهي الأجناس التي يتزوج منها المصريون فيعقبون نسلا يترتب في منزل تشرف عليه الأم التي تطبعها بطابعها الذي استمدته من أصلها وبيئتها وثقافتها .

وهذه الأجناس تتقارب أصولها أو تتباعد . ولكن بينها اختلافا في الدم لا شك فيه ، واختلافا في البيئة المنزلية لا شك فيه أيضا ، واختلافا في الأهواء والميول تبعاً لهذا وذلك وتبعاً لاتجاه الثقافات الذي سادت عند عنه بعد قليل .

فاذا نحن تجاوزنا الأجناس التي يرجع اليها الالباء أو الأمهات ، وانتقنا الى أجناس المربيات في لبيوت الغية — ونحن نهم بهذه الطبقة لأن القوة المادية تمكنها من القوة المعنوية وتجعل في يدها مقاليد الحكم والثقافة والتوجيه في أحيان كثيرة — فلنا واجدون هناك مربيات فرنسيات وإنجليزيات وأمريكيات وإيطاليات وألمانيات وأسبانيات وتركيات وحشييات وسودانيات وغير ذلك .

وهذا التعدد في أحاسن المربيات يذئى لنا نوعا آخر من البلبلة في البيئات المترلية التي تسيطر على الطفل في أطوار نموه الأولى التي تكن فيها معظم مكونات الشخصية وتلاحق هذا الطفل في كل أدوار حياته ، وتوجه عاداته وأخلاقه وسلوكه .

ثم نخطو خطوة الى الثقافات المدرسية ، ونحن نشفق على القارئ من الذهول الذي يصيبه وهو يلاحق هذه الأتباط المتباينة والمتقاربة التي لا عداد لها .

ففيما من تعلم في المدارس الابتدائية ، وتدرج منها الى الثانوية فالعالية أو الجامعة ، أو منها الى المدارس الفنية والصناعية والمتوسطة ، تعليما مدنيا مختلف الفروع متحد الأصول الى حد ما .

وفيما من تعلم في الأزهر أو أحد فروع تعيما دينيا ترى الى جانبه قليلا من التعليم المدني . وفيما من تعلم في دار العلوم تعليما وسطا بين المدني والديني ، ولكنه شيء آخر غير هذا وذلك في اتجاهاته ومقوماته .

وفيما من تعلم في المدارس الأولية ، فمدارس المعلمين تعليما قليلا له سمات غير ماتقدم جميعا . وفيما من تعلم في "كتاب" القرية أو المدرسة الإلزامية ووقف عند هذا الحد .

ثم فيما من تعلم في أحد المعاهد العالية أو الفنية أو الصناعية أو المتوسطة ولم يذهب الى أوربا وأمريكا . ومن تعلم كهؤلاء ثم ذهب الى إنجلترا ، أو ذهب الى فرنسا ، أو ذهب الى ألمانيا ، أو ذهب الى إيطاليا ، أو ذهب الى سويسرا ، أو ذهب الى أمريكا . وعاد كل واحد من هؤلاء بثقافة وعقلية وربما بشخصية متأثرة الى حد كبير بالبلد الذي عاش فيه .

وفيما من تعلم هنا في مصر في مدارس فرنسية ، أو مدارس إنجليزية . أو مدارس أمريكية ، أو مدارس يونانية ، أو مدارس إيطالية ، أو مدارس ألمانية . وبين هؤلاء من درس في أقسام هذه المدارس الخاصة وهي تؤهل لشهادات أجنبية ، ومن درس في أقسامها المصرية وحصل على شهادة مصرية . ولكن هؤلاء وهؤلاء تأثروا بالعقلية وبالبيئة التي تسود هذه المدارس وهي غير العقلية المصرية والبيئة المصرية على كل حال . وبعض هؤلاء وهؤلاء اكتفى بالدراسة في هذه المدارس ، وبعضهم سافر لإتمام تعليمه في البلاد التي تتبعها وبعضهم واصل دراسته في الجامعة أو المدارس المصرية الأخرى .

وفينا بعد هذا كله من لم يتعلم أصلا ومن عاش لا يسمع عن العالم شيئا .

فاذا نحن حارلنا استخراج النتيجة المطلقة من كل ذلك أدلنا كثرة الاتهامات العقلية والنفسية والاجتماعية والمخاطبة التي تنقسم هذا الشعب تقاسما تستحيل معه الوحدة التي يجب أن تتوفر في كل شعب من الشعوب .

هذا ولم ذكر اختلاف الأديان ، ولا اختلاف الطبقات ، ولا اختلاف البيئة الريفية والبيئة المدنية . ولم أذكر كذلك اختلاف القوايين واختلاف المحاكم التي كان يخضع لها سكان الوادي فقد كفىنا إلغاء لامتيازات شر هذه الاختلافات التي حد ما .



هذه صورة رهيبة للجمع المصري الذي طالما اطعنا إلى وحدته وتماسكه ، وهي خليفة أن تبعث في نفوسنا القلق والحذر ، وأن تنبها إلى شيء نعمله لوقف عوامل انشقاق والانحلال . ولا يجوز أن تكون سلامة الريف — إلى حد كبير — دعاية إلى التهافت أو الاطمئنان الكاذب . فالريف إذا كان قلب الوطن فإن المدينة هي رأسه ، والرأس هو المفكر والموجه للجسم جميعا .

وقد اشتركت في هذه البسلة عدة عوامل بعضها طبيعي أو تاريخي أو سياسي لا حيلة لنا فيه . وبعضها حاضر بين يدينا ومن صنع أنفسنا نستطيع دفعه ولتجوير فيه .

فأما العوامل الطبيعية فمصر الجغرافية في حوض البحر الأبيض المتوسط بين الشرق والغرب ، وفي طريق القارتين والملاجهين من هذا ومن هناك . ومن هنا الذي يجلب إليها السائحين وطبيعتها التي تغري بعضهم بالإحلال والاستيطان .

وأما العوامل التاريخية والسياسية فهي الاحتلال التركي لمصر نحو خمسمائة عام . وقد كان هذا أشد أثرا من كل احتلال سابق ، لأن الدولة العثمانية كانت امبراطورية تجمع شتى الأجناس والعناصر ، وكلهم يتمتع بالرعية العثمانية المشتركة ، فكانت مصر — بسبب موقعها في هذه الامبراطورية — محسب لقاءات لهم جميعا ، وكانت في هذا أكثر من تركيا انحلت ذاتها .

واند كان هذا التكوين نفسه من أهم عوامل الانحلال في الامبراطورية العثمانية ، فلما تفرقت بقيت آثارها في مصر كاملة .

ولقد حدث مثل هذا من قبل في الامبراطورية العربية يوم فتح العرب مملكتي كسرى وقيصر ، ولكنها تماسكت حينما من الدهر لتوحد الثقافة فيها — على الرغم من تعدد الأجناس — ولقد كانت ثقافتها قائمة على الدين واللغة المشتركين بين الجميع . وكان الأدب العربي والشعر

العربي يدرسان في كل مكان حتى لخالفني لعرب في العقيدة من شتى الأديان في الامبراطورية .  
ومع هذا فقد تحطمت الامبراطورية العربية على الصخرة التي تحطمت عليها الامبراطورية  
الغمانية بعد ألف عام .

ثم كانت لامتيازات الأجنبية - وهي أثر من آثار الحكم التركي - سببا آخر من أسباب  
هذه الفروق بما أتاحته للأحزاب من ألوان النشاط الثقافي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي  
بلا رقيب ولا نزيه باحترام القومية المصرية والمنشجصات الوطنية ، وساعدت الظروف  
السياسية بعد الاحتلال الإنجليزي هذه العوامل في نصف قرن الأخير .

وعلى أية حال فقد انعكس هذا الماضي بغيره وشره ، وإذا لم تكن لنا حيلة في التاريخ  
والطبيعة ، فإننا نملك الحاضر والمستقبل ؛ فلننظر فيما بين أيدينا من الأسباب .

لاحظت فيما تقدم أن أهم أسباب هذه الاختلافات هي التراوح والتربية المنزلية والثقافة  
المدرسية . ولا نكره أن أحمل الدولة وأحمل الأفراد عتلا يتدخل الأولى في حرية الآخرين  
وكشفهم عن زواجر بالاجبيات أو استخدامهن مربيات ، وإن كان ذلك ضروريا في بعض  
الحالات كما صنعت مع موظفي السلك السياسي .

ولكنني أشد لوطنية في نفوسهم أن يشفقوا على شعبهم من هذه السبل ، وأن يبقوا على  
وحدته المصرية والعربية والنفسية فلو وقع أن يبد من سوء المتروجين بأجنيت من هم  
مصريون بالاسم ؛ ولكن حواهم واتحدتهم جميعا إلى أنهم أمهاتهم ، وبعضهم يحتقرون  
المصرية والمصريين احتقارا ، وبعضهم لا يحتقرون ولكنهم لا يستطيعون تفاهم مع الوسط  
المصري فيصططرون إلى الاندماج في الأوسط حتى تنمى أيها الأمهات ، بعكم لنسأهم  
في بيئة خاصة لا يعرفون سواها ولا يستطيعون معرفته .

فأما ما تمسكه الدولة فهو الثقافة المصرية التي تمكن لها من لوحدة في مرحلة من مراحل  
تعليم ، وهو ثقافة اقومية تتي تضمن لها السيادة في كل مرافق الحياة . فلننظر في هاتين  
النسأتين :

لقد استعرضنا فيما مضى تلك الألون التي لا تنتهي من المدارس والدراسات ، ولا اعتراض  
لنا على تنوعها وتفرعها في ذتها ، فقد يكون من الخير منصر - ملتقى الشرق والغرب -  
أن تم بثقات أمهما جميعا .

ونكن الحرص على وحدة هذا الشعب يحتم اشتراك كل مصري في مرحلة من مراحل  
الثقافة يجب أن يتم بها التاميد في أية مدرسة وأية دراسة ، ثم يدرس بعدها كيفما شاء ، وعلى  
أي نظام أراد . هذه المرحلة نريد أن تكون بوتقة نصهر فيها الجميع فيذتموا على أساسها  
في نقطة من النقط .

وهذه المرحلة نرى أن تكون معادلة لمرحلة التعليم الابتدائي — فيما عدا اللغة الأجنبية — ويجب أن تشمل الدراسة فيها اللغة القومية وجغرافية مصر وتاريخها على وجه التفصيل مع إبراز مصور النهضة وشخصيات الأبطال في الدراسة التاريخية، وقسطا من المعلومات العامة والرياضيات .

يستوى في هذه الدراسة من يتعلمون في الأزهر ومن يتعلمون في دار العلوم ومن يتعلمون تعليما مدنيا خالصا في جميع مدارس الدولة . ويستوى فيها كذلك من يتعلمون في المدارس الأجنبية على اختلافها .

ويجب أن تشرف الدولة على هذا القسم في كل دور العلم التي تقوم به، لافرق في ذلك بين مدارس مدنية أو دينية أو أجنبية ، لتضمن بهذا الإشراف جدية التنفيذ . ولا يجوز أن تسمع عذرا في هذا أو تقبل حجة . لأن ذلك عمل من أعمال المحافظة على سلامة الدولة إلزم من أعمال الدفاع الحرفى في الميادين .

والحرص على وحدة الشعب الثقافية يحتم الحرص على وحدته اللغوية كذلك . ولن تنهى مهمة الدولة عند رعاية اللغة قومية في المدارس جميعا، بل يجب أن تراعى في خارج المدارس كذلك . وإنه لعجيب أن تظل اشركات الأجنبية ودوائرا الأعمال تحمل اللغة القومية في معاملاتها فيجب أن يوضع حد لهذا الاهمال .

وقد خطت اللجنة التالية في مجلس النواب خطوة مشكورة حين أضافت إلى قانون ضريبة الأرباح الاستثنائية مدة تحتم على اشركات الأجنبية تقديم حساباتها لإدارة الضرائب باللغة العربية ، مما دعا الحكومة إلى العزم على معالجة هذه اشركات بالمساك دفتر عربية .

ولكن هذه وتلك خطوات متواضعة في نظرا فيجب أن تكون جميع لأعمال وجميع المحاطبات والعقود بين بعض هذه اشركات وبين الجمهور المصرى ، أو بينها وبين المحاكم في القضايا التي تثيرها صلاتها بالأفراد أو بالحكومة — بغة البلاد التي تعيش فيها وتكسب منها أرباحها . كما يجب أن تكتب المتاجر دور أسبينا وسواها أسماءها وأسماء بضاعتها أو لغة فلامها باللغة القومية ، بلا تسامح ولا إهمال .

إن هذه المسألة شقين كلاهما ذو علاقة بكيان الشعب ووحدته . ولما انشق الأول فهو احترام القومية المصرية وبره ز معناها في كل ما تقع عليه أذن أو تسمع به الأذن، ولهذا أثره في تمكن هذه المظاهر وتقويتها في النفوس وإدماجها في وحدة يتسم بها الجميع .

وأما الشق الثانى ففسح مجال العمل فى الشركات ودوائر الأعمال الأجنبية للشباب المصرى ، وبهذا تتمصر هذه الشركات والدوائر شيئاً فشيئاً ، وتنسجم مع الوحدة الوطنية فى لغتها ومماتها وطرق معاملاتها ، فلا تبقى هكذا دولة فى داخل الدولة .



لقد تعددت الأجناس فى أمريكا وبخاصة فى الولايات المتحدة بحكم الهجرة إليها فصار شعبها يتألف من عناصر كثيرة ، كالذى حدث فى مصر ، ولكنها استطاعت — مع هذا — أن تنصهر هذا الشعب المتجمع فيها ، وتحيله عنصراً واحداً له مميزات وممات وطابع خاص أمريكى .

وكانت وسيلتها إلى هذا إخضاع الجميع لنظام حكم واحد ، وثقافة واحدة ، ولتقاليد واحدة فلم يمض قرن من الزمان حتى تناسلت هذه العناصر المختلفة ، وتوارت الفروق بين بعضها وبعض وإذا الجميع أمريكىون يتميزون بطابعهم الجديد .

وقد يقال أن الاستقلال الأمريكى وحرية التشريع للذين لم يصابا بنظام الامتيازات الأجنبية قد جعلوا القوم هناك أخف عبثاً مما فى مصر . ولكن هانحن أولاء قد حصلنا من الاستقلال على ما يسمح لنا بحرية التشريع إلى حد كبير ، فيجب أن نسلك طريق أمريكا فى صهر العناصر والثقافات التى تنعج بها مصر حتى تعود ولها طابع واحد ممتاز .

وقد لا نملك التحكم فى البيوت إلا بمناشدة الوطنية فى الصدور ، ولكننا نملك التحكم فى المدرسة والمجتمع عن طريق التشريع والمهر على التنفيذ . فلنفعل ، وإنا — إن شاء الله — لفاعلون ما

محمد عبد الجليل أبو سمرة

معا بهرير ماتت مدته راسمدا لوتشمن لهرزر  
مسميا فاستغفر الله شهره رخصته ندفه من كبر  
هذه نساهم به الصبر هاكم